الحياة العلمية في تيهرت إلى منتصف القرن السادس الهجري

بقلم د/ محمد بن معمر

في منتصف القرن الأول الهجري نجح العرب الفاتحون في فرض سلطانهم على إفريقية، وما إن تم لهم ذلك حتى أنشأوا بها أول قاعدة لهم هي القيروان نواة إفريقية الإسلامية. وقد اتخذ الفاتحون من المدينة الجديدة مركزا حربيا يجيشون منه الجيوش لمواصلة أعمال الفتح، ومحطا لرحالهم وعيالهم، وقاعدة يبثون منها لسانهم وينشرون مبادئ الدين القويم. و لم يمض على تأسيسها وقت طويل حتى عرفت تطورا عمرانيا سريعا بفضل مركزها السياسي والديني وموقعها الجغرافي الهام. فبعد بناء عقبة بن نافع لدار الإمارة والمسجد، أخذ الناس في بناء الدور والمساكن والمساجد وعمرت وشد الناس إليها المطايا من كل أفق وعظم قدرها[1] ومضت القيروان إلى جانب دورها السياسي والعسكري تؤدي رسالتها العلمية والثقافية، وظلت حتى منتصف القرن الثاني الهجري المركز العلمي الوحيد في بلاد المغرب الذي يتوافد عليه طلاب العلم والمعرفة.

ولكن خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عرف المغرب الإسلامي ميلاد مدن جديدة إلى جانب القيروان ارتبط ظهورها بالحركة الإستقلالية عن خلافة بغداد العباسية، تلك الحركة التي أفضت إلى قيام دول وإمارات ببلاد المغرب، وكانت الدولة الرستمية واحدة منها، حيث أسست مدينة تيهرت واتخذها

عاصمة جديدة لها في المغرب الأوسط. و لم يمض على تاريخ تأسيس المدينة سنة 160هـ سوى وقت قصير كما يخبرنا ابن الصغير حتى أتت أهلها الوفود والرفاق من كل الأمصار و أقاصي الأقطار، وليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين[2].

لقد تطورت الحركة العمرانية في المدينة بشكل سريع نتيجة الإزدهار الإقتصادي الذي صاحب تأسيسها خصوصا الحركة التجارية التي جلبت إلى المدينة الناس من كل الآفاق، وهذا ما يشير إليه ابن الصغير قائلا: واستُعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الامتعة، فأقاموا على ذلك والعمارة زائدة والناس والتجار من الأقطار تاجرون[3]. وهو ما أهل تيهرت لأن تصبح ليس العاصمة السياسية والإقتصادية للدولة فحسب، بل وتتبوأ إلى جانب ذلك مكانتها الثقافية وتؤدي رسالتها العلمية، ولعل ما يهمنا من أمر تيهرت في هذا المجال هو شهرتها العلمية وبروزها كأول مركز ثقافي في المغرب الأوسط.

وإذا كان وضع تيهرت بصفتها العاصمة السياسية والإقتصادية للدولة الرستمية، كفيلا بأن يجعل منها أقدم مركز ثقافي في المغرب الاوسط، فإن ثمة عوامل أخرى ساعدتها على ذلك وأضحت أشهر مركز في هذا الإقليم على مدى أكثر من قرن من الزمن. ويأتي في مقدمة تلك العوامل، دور الائمة الرستميين في اهتمامهم بالثقافة وعنايتهم بالفكر وتشجيعهم لمختلف مجالات الحياة الثقافية وإسهامهم في إنعاشها.

وهذا ليس غريبا في حق هؤلاء الأئمة، إذ كانوا هم أنفسهم من العلماء البارزين، ومن الذين حازوا نصيبا وافرا من العلم، وفي مقدمتهم مؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم(160- 168هـ)، لأن من شروط تولي الإمامة عند الإباضية أن يكون الإمام المُبايَع عالما محيطا. لقد أخذ عبد الرحمن بن رستم العلم من المشرق وهو أحد حملته الخمسة إلى المغرب، حيث قضى خمسة أعوام في مدرسة البصرة أمام شيخه أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي أجاز له ما لم يجز لأصحابه الآخرين حين قال له وهو يهم بتوديعهم: إفت بما سمعت مني وما لم تسمع[4]، وهي دعوة واضحة للإجتهاد نظرا لما كان يتمتع به ابن رستم من مؤهلات لذلك. و لم تمنع الإمام الرسمي الأول مشاغله السياسية من الكتابة والتأليف حيث تذكر الرواية الإباضية أنه ترك كتابا في التفسير الذي ظل متداولا حتى منتصف القرن الخامس الهجري[5]، غير أن ابن الصغير ينفي ذلك عن الإمام الرستمي[6].

و لم يكن الإمام الثاني عبد الوهاب(168- 208هـ) أقل شأنا من أبيه في التفوق العلمي والإهتمام بالحياة الثقافية، إذ كان يشرف بنفسه على إلقاء الدروس، و لم يقتصر على ذلك فقط بل ألف كتابا يعرف بمسائل نفوسة الجبل، وهو عبارة عن أجوبة لمسائل أشكلت على أهل جبل نفوسة، وقد أكد ابن الصغير على شهرة هذا الكتاب عند الإباضية وقال إنه درسه ووقف عليه[7]. ومما يدل على شغفه العلمي وولعه الزائد بالكتب والمطالعة، أنه أرسل ألف دينار لإخوانه بالبصرة ليشتروا له بها كتبا، فنسخوا له أربعين حملا منها وبعثوا بها إليه، ولما وصلته قرأها كلها وعلق عليها قائلا: ليست منها مسألة ليست عندي إلا مسألتين لو سُئلت عنهما لأجبت قياسا على نظائرهما[8].

ويعتبر عهد الإمام الثالث أفلح بن عبد الوهاب(208- 258هـ) من أزهى عصور الدولة الرستمية في مجال الثقافة والفكر، نظرا لطول فترة حكمه وما سادها من رخاء إقتصادي. وقد أخذ العلم عن أبيه وجده ومن عاصرهما من العلماء حتى بلغ درجتهم وتفوق على بعضهم، وأصبح من الأئمة المعدودين والعلماء المشهورين خصوصا في علم الكلام[9]. وبلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما[10]، وكان إلى جانب ذلك يجيد الشعر وهو ما تثبته القصيدة الرائية التي نظمها، كما ترك العديد من الرسائل[11].

أما رابع الأئمة الرستميين وهو أبو بكر بن أفلح(258- 261هـ) الذي اهملته المصادر الإباضية وسكتت عنه وعن أيامه بسبب فتنة ابن عرفة[12]، فإن ابن الصغير يخبرنا عن هذا الإمام قائلا: و لم تكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن كان قبله من آبائه، ولكن كان سمحا جوادا لين العريكة يسامح أهل المروءات ويشايعهم على مروءاتهم ويحب الأداب والاشعار وأخبار الماضين، وكان يحب اللذات ويميل إلى الشهوات[13]. واضح من النص أن الإمام الرستمي الرابع كان يتصف بالرقة في دينه على خلاف من سبقوه، وهذا ما انعكس على تكوينه الثقافي والفكري ونوعية العلوم التي نشطت في عهده، إذ كان اهتمامه منصبا على الأدب والشعر والتاريخ في حين أهمل العلوم الأخرى والدينية منها على وجه الخصوص، ولعل ذلك كان من الاسباب التي دفعت المصادر الإباضية إلى إهماله أيضا.

لم يدم عهد أبي بكر طويلا، إذ سرعان ما خلفه على كرسي الحكم الإمام الخامس أبو اليقظان محمد بن أفلح(261- 281هـ) الذي عاد إلى زهد جده عبد الرحمن. ويصفه ابن الصغير الذي أدرك بعض أيامه وإمارته أنه كان زاهدا ورعا ناسكا سكينا[14]، وأن نفوسة الجبل كانت مفتونة به حتى أنها أقامته في دينها

وتحليلها وتحريمها مثلما أقامت النصارى عيسى بن مريم[15]. وهو ما تؤكده الرواية الإباضية التي أجملت عهده كالتالي: وكانت نفوسة لا تعدل بولايته إلا ولاية جده عبد الرحمن وسيرته وذلك أنهم اتخذوا مجلسه حينئذ كالمسجد، فطائفة يصلون، وطائفة يقرأون الكتاب، وطائفة يتحدثون في فنون العلم، وكان له في الرد على المخالفين كتب كثيرة بليغة لا يشق فيها غباره ولا تياره[16]. إن حياة الزهد التي عاشها الإمام الخامس والشدة في الدين التي اتصف بها كان له التأثير الواضح في توجيه الحياة الثقافية من خلال الإهتمام بالعلوم الدينية التي ضعف شأنها في عهد سلفه.

وحتى لا نطيل في تتبع كل الأئمة، فإن الرواية الإباضية تجمل علو كعب الأسرة الرستمية وطول باعها في ميدان العلم وإسهامها الكبير في نشره بين الناس في الفقرة التالية: كان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه من الأصول والفقه والتفسير وفنون الدين والرد على المخالفين وعلم النحو والإعراب والفصاحة وعلم النجوم، وقال بعضهم معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر[17]. وهو أقصى ما بلغته الأسرة الرستمية في ميادين العلم.

ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في بناء مركز تيهرت الثقافي، تسامح الأئمة الرستميين الذين فسحوا المجال واسعا أمام حرية الفكر، ولأنصار المذاهب المختلفة بالإقامة في المدينة والدفاع عن آرائهم. وهو ما أدى إلى تزاحم الآراء والمذاهب بتيهرت الرستمية التي غدت قبلة للعلماء والطلبة من مختلف العقائد والنزعات والميول، فمنهم السنيون وعلى رأسهم أتباع مذهب مالك، ومنهم من يرجح آراء أهل العراق وهم أتباع مذهب أبي حنيفة، ومنهم المتمسكون بالنِّحَل الخارجية كالصفرية والإباضية، وإلى جانب هؤلاء، الواصلية من المعتزلة. ولعل هذا

التزاحم في المذاهب والنحل هو الذي دفع الرحالة اليعقوبي أن يطلق على تيــهرت تسمية "عراق المغرب"[18]. وهو ما جعل من تيهرت مركزا للدراسات الإســلامية ومدرسة لها معالمها الخاصة في تاريخ الفكر الإسلامي[19].

ومن النصوص الدالة على تسامح الإباضيين مع أهل المذاهب الأخرى مــن سكان المدينة ما ذكره ابن الصغير في أكثر من موطن من تاريخه، ومنها أن الإباضية لا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفونه عن حاله ولو رأوه رافعــا يديه، ما خلا المسجد الجامع[20]. ومنها أنه من أتى إلى حلق الإباضية من غــيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كــان سبيله كذلك، وأن كل فرقة كانت تشتهي معرفة عقائد الفرقة الأخرى[21].

أما المؤسسات التي كانت تتولى مهمة النشاط الثقافي وتوجيهه في تيــهرت فهي متنوعة يمكن التركيز فيها على ثلاث مؤسسات هـــي الكُتّــاب والمســجد والمكتبة.

بالنسبة للكُتّاب فإنه كان يمثل اللبنة الأساسية للحياة الثقافيــة، والمؤسســة الأولى التي تتلقى فيها الناشئة حفظ القرآن الكريم والاحاديث النبوية ومبادئ اللغــة العربية وهو ما يشبه مرحلة التعليم الإبتدائي في الوقت الحالي، و لم يكن الكُتّــــاب ظاهرة مقتصرة على تيهرت وحدها، بل كان نظاما معمولا به في كل بلاد المغرب الإسلامي. وكانت الكتاتيب من توابع المساجد وملحقاتها[22]، نظرا للعلاقة الدينية والتعليمية الوثيقة بين المؤسستين، وبسبب الفتاوى التي تمنع الصبية مــن دخــول المسجد[23]. وإذا قرأ الطفل في الكُتّاب وحفظ القرآن وتعلم مبادئ اللغة يكون قد بلغ الحُلُم، وحينئذ ينتقل إلى المرحلة الثانية في حياته الثقافية والعلمية، هـــذا مــا يستنتج من نص أبي زكرياء حول أحد أعلام الإباضية الذي قال عنه: فنشأ الغلام،

فلما احتمل الأدب، أدخله أبوه في الكُتّاب، فقرأ وحفظ، فلما اشتد وبلغ الحُلُم، سوّلت له نفسه طلب العلوم[24].

وكانت المؤسسة التي يتوجه إليها طالب العلم بعد بلوغه الحلم هي المسجد الذي كان بمثابة المعاهد والجامعات في وقتنا الحاضر، إذ كان الطلاب يتحلقون في المساجد حول العلماء وهي ظاهرة ظلت مستمرة في جميع البلاد الإسلامية قبل بناء المدارس في القرن الخامس الهجري. ويخبرنا ابن الصغير أن مساجد تيهرت كانت عامرة وجامعهم يجتمعون فيه[25]، وكانت العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وغيرها من العلوم تلقى في المساجد على شكل مواعظ للعامة وعلى شكل دروس في حلق خاصة. وعن تلك الحلق المتخصصة تشير الرواية الإباضية في معرض حديثها عن الإمام أفلح بن عبد الوهاب أنه قعد بين يديه أربع حلق يتعلمون منه فنون العلم، وهي الفقه والأصول والنحو وغير ذلك[26].

وإلى جانب التخصص، تميزت تلك الحلق بالتنوع نظرا لتعدد المذاهب التي كان يمارس أصحابها نشاطهم بكل حرية في مساجد تيهرت مما أضفى على الحياة الثقافية جو التنافس وصبغة المناظرة. وفي الوقت الذي كانت تعيش فيه مساجد تيهرت هذا الجدل بين الفرق والمذاهب، نجد القاضي سحنون في مسجد القيروان يفرق مثل هذه الحلق ويشرد أهلها من الصفرية والإباضية والمعتزلة ويعزلهم عن إمامة الناس وتعليم الصبيان ويمنعهم من الإجتماع في المسجد الجامع[27].

والواقع أن المسجد في تيهرت الرستمية شأنه شأن كل مساجد البلاد الإسلامية في تلك الفترة المتقدمة، كان متعدد الإختصاصات، فقد كان المكان الذي تؤدى فيه الشعائر التعبدية، والمعهد الذي تدرس فيه العلوم، وكان دارا للقضاء، ومنزلا لاستقبال السفراء، ومركزا كبيرا للحياة الإجتماعية.

أما مؤسسة الإشعاع الثقافي الثالثة التي عرفتها تيهرت الرستمية فهي المكتبة التي عُرفت في الرواية الإباضية المتأخرة بالمعصومة[28]، لوجودها بالقصبة المعصومة فيما يبدو. ويعزى الفضل في تأسيس هذه المكتبة إلى رغبة الأئمة الرستميين في اقتناء الكتب واشتهارهم بالتأليف وإسهامهم في بعث الحياة الفكرية.ويبدو أن هذه المكتبة قد تأسست على عهد الإمام الثاني عبد الوهاب الذي بعث إليه أهل المشرق أربعين حملا من الكتب المنسوخة[29]، وهي الأحمال التي سماها الدرجيني ديوانا عظيما، وذكر الشماخي أنها خزانة كتب[30]. ومن غير المستبعد أن تكون هذه الكتب بمثابة النواة الأولى للمكتبة الرستمية التي عرفت إهتماما بالغا من طرف خلفاء عبد الوهاب الذين طعّموها بمصادر إباضية وغيرها في مختلف العلوم.

ومما يدل على تنوع الكتب بمكتبة بني رستم واحتوائها على مصنفات في العلوم والشؤون الفكرية العامة إلى جانب كتب المذهب الإباضي، أن الرواية الإباضية حين أشارت إلى دخول أبي عبد الله الشيعي تيهرت سنة 296هـ، ذكرت أنه وجد صومعة مملوءة كتبا، فاستخرجها كلها واقتنى منها كل ما يصلح للملك والحساب وأضرم النار في بقيتها[31].

على الرغم من الأهمية التي إكتستها هذه المكتبة بفضل تنوع محتوياتها وإشراف الاسرة الحاكمة عليها، فإن الرواية الإباضية لاتعطينا تفاصيل دقيقة عنها من حيث نظامها الداخلي وترتيبها وكيفية التعامل معها، وهل كانت مفتوحة لكل فئات المجتمع أم أنها كانت مقتصرة على النخبة من العلماء. كل ذلك سكتت عنه المصادر التاريخية، وعليه فمن الصعب أن نجزم ما اشتملت عليه هذه المكتبة من تراتيب، ولكن الثابت أن أغلب كتبها كانت من نتاج علماء الدولة الرستمية الذين كانوا في نفس الوقت أول المتعاملين معها.

إلى جانب العوامل التي ساهمت في بناء مركز تيهرت الثقافي والمؤسسات التي عرفها هذا المركز، بقيت الإشارة إلى العلوم السائدة في تيهرت الرستمية وأبرز العلماء الذين عاشوا في وسطها الثقافي، سواء ممن أنجبتهم أو وفدوا عليها.

إذا كانت تيهرت قد عرفت تنوعا في العلوم من نقلية وعقلية ودنوية، فإن الذي طغى على الحياة الثقافية بها هي العلوم الدينية وشؤون الدعوة الإباضية والجدل المذهبي والمناظرات، وهو ما اعتبره الجنحاني أمرا بديهيا في مدينة إباضية تعتمد المذهب دستورا للحكم وتطبق مبادئه في العبادات والمعاملات ويواجه حكامها معارضة سياسية ودينية داخل المذهب وخارجه[32]. ولأن المجال هنا لا يسمح باستعراض تلك العلوم مفصلة، فإنني أكتفي بهذه الملاحظة سيما وأن غيري من الباحثين قد طرق الموضوع بإسهاب[33].

والملاحظة نفسها يمكن سحبها على علماء تيهرت لأنهم كُثُر سواء الذين عُرفوا منهم أو الذين عفت آثارهم، ولا نبالغ إذا قلنا إن المادة الضافية في المصادر التاريخية الإباضية هي تلك المتعلقة بالتراجم وخصوصا مشايخ المذهب الذين جاءت تلك المصادر حافلة بذكرهم. هذا ما يتضح من خلال مصدرين هامين صنِّفا في الأساس لهذا الغرض وهما طبقات الدرجيني وسير الشماخي. وقد قسم الاول هؤلاء العلماء والمشائخ إلى طبقات، كل طبقة تضم جيلا منهم، وحدد عمر كل طبقة زمنيا بخمسين سنة، فجاءت إثنتي عشرة طبقة، من بداية القرن الاول الهجري إلى نهاية السادس. يهمنا منها بالنسبة لتيهرت الرستمية الطبقات الرابعة والخامسة والسادسة التي تغطي الفترة من150إلى 300هـ[34]. في حين صنف الشماخي سيره فيما يخص علماء الدولة الرستمية حسب عهد كل إمام من أئمتها، وعن هذا المصدر يقول الباروني: أما علماء الإباضية فيعدون بالألف ومن أراد

معرفتهم فعليه بتاريخ الشماخي إذ هو حضيرة الأولياء وروضـــة العلمـــاء وإن لم يحصرهم هو أيضا، إلا أنه أتى بأغلب مشاهيرهم[35].

لقد كان هؤلاء العلماء الدعامة القوية التي أرست قاعدة تيهرت الثقافية أيام بني رستم، وإليهم يعزى الفضل في قيادة الحياة الثقافية بها وإشرافهم على تنظيمـــها من خلال حلقات الدروس بين العامة في المساجد وبين طلاب العلم في الفقه وعلم الكلام واللغة والنحو وغيرها من ضروب العلم والمعرفة، هذا فضلا عن حركـــة التأليف التي كانوا هم روادها الأوائل.

وفي نهاية القرن الثالث الهجري، سقطت دولة بني رستم على يد أبي عبد الله الشيعي الذي غزاها سنة 296هـ، و لم يكن سقوط تيهرت سياسيا فحسب، بـل جاء الغزو ليقضي على أي نشاط ثقافي إباضي بها وطمس معالمه، يدل علي ذلـك حرق مكتبة المعصومة. وأمام استحالة التصدي للزحف الشيعي ومقاومته لجـأت فلول الإباضية إلى الصحراء طالبة الأمان فاختارت، ورجلان ونواحيها. وسرعان ما حملت هذه المدينة لواء الثقافة الإباضية وأصبحت البديل لتيهرت، وتقاطر النـاس عليها وخاصة التجار والعلماء، ولكن الفرق بينهما أن مركز تيهرت الثقافي نشأ في ظل نظام سياسي قائم كان يدعمه، في حين حملت ورجلان الراية بعد انحسار هذا النفوذ السياسي.

وأما واقع تيهرت بعد سقوط الدولة الرستمية فيصوره صـاحب الأزهـار الرياضية على النحو التالي: فتوالت عليها بعدهم المصائب، وتتابعت عليها النوائب، وتراكم على أهلها البلاء، وفشا فيهم التنقل والجلا، وامتحنوا بالزلازل والقتـال، وتجرعوا كؤوس الذل والوبال ... وبعد أن تبادلتـها أيـدي الشـيعة وغـيرهم

إضمحلت آثار العدل منها وتغيرت معالمها، وساد فيها الجهل، وسارت في التقهقر والإدبار[36].

قد يبدو لنا ولأول وهلة هذا التصوير أمرا مبالغا فيه من طـــرف مصـــدر إباضي متأخر متعاطف مع الرستميين، ولكن القراءة المتأنية للمصادر التاريخية تجعلنا نسايره فيما ذهب إليه، سيما وأننا نملك نصا هاما لجغرافي معروف هو ابن حوقـل الذي زار المدينة في منتصف القرن الرابع الهجري وأكد ذلك قائلا: وقد تغـــيرت تاهرت عما كانت عليه، وأهلها وجميع من قاربها من البربر في وقتنا هذا فقـــراء بتواتر الفتن عليهم ودوام القحط وكثرة القتل والموت[37].وقد مر بنا في أحـــداث الفصل الثاني كيف تحولت تيهرت إلى نقطة صراع بين الفاطميين وزناتة فكـــان يتغلب عليها هؤلاء تارة وأولئك أخـــرى، كمـــا ظلـــت القـــاعدة العســـكرية الإستراتيجية بالنسبة للفاطميين طوال فترة تواجدهم بالمغرب في فرض ســـيطرهم على الجهات الغربية من هذه البلاد، واتخذها لنفس الغرض خلفاؤهم الزيريون.

وفي خضم هذا الإضطراب واللاأمن الذي ساد تيهرت طوال القرن الرابـــع الهجري فقدت أهميتها كمركز إشعاع ثقافي، هذا إلى جانب ظهور مدن جديدة في المغرب الأوسط ومنها المسيلة وأشير والقلعة التي استقطبت العلم والعلماء، وكـــان ذلك على حساب تيهرت التي لم تنل عناية الدول المتعاقبة عليها في المجال الثقـــافي، والتي كانت تنظر إليها نظرة استخفاف لأنها من مؤسسات الخوارج[38].

و لم تكن هجرة رجال العلم والثقافة من أهل تيهرت بعد ســـقوط الدولـــة الرستمية إلى ورجلان وحدها، بل كانت وجهة بعض الأسر التيهرتية إلى الأندلـــس أيضا، هروبا من إضطراب الأوضاع التي شهدتها تيهرت منذ مطلع القرن الرابـــع الهجري. وقد أمدتنا مصادر التراجم الأندلسية بنماذج عن تلك الأسر، ومنها عائلة

بني الأشج التي اخبرنا عنها ابن الفرضي في معرض حديثه عن أحد أعلامها وهو زكرياء بن بكر بن أحمد الغساني الذي دخل الأندلس مع أبيه وأخيه سنة 326هـ، وكانت وفاة زكرياء هذا بقرطبة في رمضان سنة 393هـ[39].

وفي سنة 318هـ هاجرت عائلة البزاز من تيهرت ودخلت الأندلس وقد أشارت المصادر إلى اثنين من أفرادها، وهما قاسم بن عبد الرحمن بن محمد التميمي الذي نشأ بتيهرت وطلب العلم فيها عند بكر بن حماد وكان الغالب عليه الفقه والنحو والشعر[40]. وابنه أحمد المكنى بأبي الفضل الذي دخل مع أبيه الاندلس وهو ابن تسع سنين، وهو من الأعلام البارزين في ميدان العلم، ولد بتيهرت سنة 309 هـ ومات بقرطبة سنة 396هـ[41].

يتبين مما سبق أن عهد تيهرت الذهبي في مجال الثقافة والفكر والدور الذي لعبته كمركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط قد ارتبط بالدولة الرستمية، وبسقوطها اضمحل ذلك الدور، وهي نتيجة حتمية لمدينة كانت تتبوأ مكانة العاصمة السياسية ثم انهارت أمام ضربات خصومها الذين اتخذوها قاعدة عسكرية لفرض سلطانهم. فكثرت بها الفتن والحروب مما اضطر رجال العلم والثقافة بها إلى الهجرة والبحث عن مدن أكثر أمنا، وزاد في اضمحلال هذا الدور إهمال الدول المتعاقبة عليها للحركة الثقافية بها.

غير أن هذا الوضع الذي آلت إليه تيهرت ثقافيا منذ سقوطها كعاصمة سياسية لم يعدم وجود علماء بارزين من أبنائها، نكتفي بالإشارة إلى واحد منهم يكون خاتمة هذا المبحث وهو قاضيها أبو علي الحسن بن أبي علي بن محمد بن أحمد التميمي المعروف بابن الربيب المتوفى سنة 420هـ، وهو من علماء الأدب والخير والنسب وكان خبيرا باللغة شاعرا مقدما قوي الكلام. واشتهر شاعرنا ابن

الربيب بالرسالة[42] التي وجهها إلى عالم الأندلس أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم المتوفى سنة 438هـ، وقد أشار فيها إلى تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسيرة ملوكهم. فأجابه عبد الوهاب بن حزم برسالة طويلة[43]، كما كتب ابن عمه المجادل الشهير أبو محمد علي بن أحمد بن حزم المتوفى سنة 456هـ رسالة أخرى[44]، عند وقوفه على رسالة ابن الربيب.

ويتضح من محتوى رسالتي عبد الوهاب بن حزم وابن عمه أبي محمد علي بن حزم، أن ابن الربيب قد نجح في استفزاز علماء الأندلس الذين حثهم على إدراك قيمة تراثهم الثقافي، فاستحق بذلك تبوأ مكانة مرموقة في تاريخ الغرب الإسلامي الثقافي.

الهوامش

1-ابن عذاري، البيان، ج1، ص: 21.

2- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص: 36.

3-ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين ، ص ص: 36 – 37.

4-الشماخي، كتاب السير، ص: 51.

5-الدرجيني، الطبقات، ج2، ص: 471.

6-ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين ، ص: 45.

7-نفس المصدر، ص ص: 45 – 46.

8-أبوزكرياء، السير، ص ص: 99 –100.

9- علي يحي معمر، الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الرابعة)، ص: 69.

10- أبو زكرياء، المصدر السابق، ص: 136.

11-الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص: 187 – 194، 200 – 205، 214 – 219.

12-وردت تفاصيل هذه الفتنة عند ابن الصغير في أخبار الأئمة، ص ص: 71 – 78.

13-ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص ص: 71 – 72.

14-نفس المصدر ، ص: 92.

15-نفس المصدر ، ص: 97.

16-أبو زكرياء، السير، ص ص: 147 – 148 – الدرجيني، الطبقات، ج1، ص ص: 83 – 84.

17-أبو زكرياء، السير، ص: 99 – الشماخي، كتاب السير، ص: 107.

18-اليعقوبي، كتاب البلدان، ص: 109.

19-الجنحاني الحبيب، المغرب الإسلامي (ط الجزائر 1977)، ص: 139.

20-ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين ، ص: 88.

21-نفس المصدر، ص: 117.

22-حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، القسم الأول، ص: 94.

23-الونشريسي، المعيار، ج7، ص: 83.

24-أبو زكرياء، السير، ص: 203.

25-ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص: 117.

26-الشماخي، كتاب السير، ص: 107.

27-أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، ص: 102 – الدباغ، معالم الإيمان، ج2، ص: 87.

28-الباروني، الازهار الرياضية، ج2، ص: 293.

29-أبو زكرياء، السير، ص ص: 99 –100.

30-الدرجيني، الطبقات، ج1، ص ص: 56 –57 – الشماخي، كتاب السير، ص: 143.

31-أبو زكرياء،السير،ص:170–الدرجيني،الطبقات، ج1،ص:94-95–الباروني،الأزهار الرياضية،ج2،ص: 293.

André Negre, la fin de L'etat Rustamide,.(R,H,C,M) p:20

32-الجنحاني الحبيب، المغرب الإسلامي، ص: 137.

33-خصص الباحث إبراهيم بحاز في رسالته حول الدولة الرستمية فصلا كاملا لموضوع العلوم وأبرز العلماء في الدولة الرستمية وعاصمتها تيهرت. ص ص: 298 – 376.

34-الدرجيني، الطبقات،ج2، ص ص: 273 – 335.

35-الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص:67.

36-الباروني، الأزهار الرياضية، ج2، ص: 295 و ص: 299.

37-ابن حوقل، صورة الأرض، ص: 93.

38-عبد الله علام، الدولة الموحدية، ص: 286.

39-ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، (الترجمة رقم 455)، ص: 130.

40-الحميدي، جذوة المقتبس، (الترجمة رقم 775) ص: 313 – ابن الابار، التكملة، (الترجمة رقم 235)، ج4،ص:80.

41- المصدر نفسه، ص ص: 132 – 133 – الضبي، بغية الملتمس، ص ص: 171 – 172.

42-ابن بسام، الذخيرة، مج، القسم الأول، ص ص: 133 – 136– المقري، نفح الطيب، ج3، ص ص: 158 – 156

43-المصدر نفسه، ص ص: 136 – 139.

44-المقري، نفح الطيب، ج3، ص ص: 158 – 179.